

رؤية العالم عند حنا مينة من خلال العصابات الزرق

الكتاب: الرقي والحب

جامعة 'زيان عاشور' الجلفة - الجزائر

1- مولد حنا مينة ونشأته:

ولد حنا مينة في اللاذقية عام 1924 ، والدته اسمها مريانا ميخائيل زكور، وقد رزقت بثلاث بنات كن بالنسبة لذلك الزمان عيب ، وكان المطلوب أن تلد المرأة صبيان ، فقد عانت أمه التعاسة والفقر والشقاء . وهكذا إلى أن أتى حنا في الحمل الرابع ، وبكيت والدته من الفرح بينما كانت قبل ذلك تبكي من الحزن ، وهكذا بعد طول انتظار وطول معاناة أتت هذه المنحة مهددة بالأمراض والخوف عليه منها، ثم الدعاء إلى الله في أن يعيش ، حتى لا تعيش الوالدة في الخيبة من جديد ، وكان الموت والحياة يحومان حول فراش حنا الذي كان طراحة على حصيرة في بيت فقير إلى حد البؤس الحقيقي ، فكانت الوالدة تسأل الله ، وتندر الندور ، وتبتهل بكل ما في الابتهاال من ضراعة ألا تنطفئ الشمعة التي كأنها ، وشاء الله أن يعيش حنا في قلب الخطر ، وهذا الخطر لازمه حتى الشباب ، وعندما تحول من خطر الموت إلى خطر الضياع ، في السجون والمنافي ، وهذه التي أبكتها بكاء مضاعفا خشية ألا تراه وهو يعطي نفسه للعذاب في سبيل ماكان يسميه التحرر من الاستعمار .

الفرنسي ، وتحقيق العدالة الاجتماعية . ثم تعين عليه أن يهاجر مع عائلته من اللاذقية إلى مدينة السويدية ، ثم إلى الاسكندرونة ، ثم إلى الريف ثم بعدها العودة إلى الاسكندرونة نفسها حيث عاش طفولته في حي المستنقع، ليدخل في السابعة من عمره المدرسة ، وينال الابتدائية عام 1936 ، ويوقف دراسته ،ذلك أنه لم يكن بالإمكان إرساله لمتابعة تعليمه فبالكاد كان لديه صندل ينتعله شتاء ، فيما يمضي شهور الصيف حافيا ، فالأب كان حمالا في المرفأ ، وأحيانا بائعا للحلوى ، أو أجيرا في بستان ، وكثيرا ما كان يترك عائلته ويرحل بحثا عن عمل ، لتبقى الأم تعاني مع أطفالها من الخوف والجوع ، ما اضطر حنا للعمل في سن مبكرة .

وقد تحدث عن طفولته في الاسكندرونة قائلا : طوال أربع سنوات كنت أقوم مع بعض أطفال المدرسة بالخدمة في الكنيسة ، نطفئ الشموع ، نحمل الأيقونات ، وننام أحيانا واقفين .

كان والده رحالا ، لكنه لم ينفع ولم ينتفع برحلاته كلها ، تاركا عائلته غالبا في الأرياف للخوف والجوع، ويقول :

حنا : (لطالما تساءلت وراء أي هدف يسعى ؟ لا جواب طبعا انه بوهيمي بالفطرة).

وقد عملت أمه وأخواته الثلاث خادما ، أما هو الصبي الوحيد الناحل فقد عمل أجيرا.

وفي عام 1938 ، تمت المؤامرة بين تركيا وفرنسا ، وأعطى اللواء إلى تركيا ، ودخل الجيش التركي اسكندر ون ، وفي عام 1939 حدثت هجرة الأرمن والعرب من لواء اسكندر ون . وكان حنا ابن ستة عشر ربيعا عندما هرب في أيلول من اسكندر ون إلى اللاذقية ، ومن احتكاكه مع الأرمن في هذه الظروف كتب فيما بعد روايته الفم الكرزي .

وكان حنا قد دخل المعتزك السياسي الحزبي مبكرا منذ أن كان فتى في الثانية عشر من عمره ، وناضل ضد الانتداب الفرنسي ، وعند وصوله اللاذقية عمل حمالا في المرفأ ، ووجد أن العمل الحزبي في اللاذقية صعب فشرع مع أصدقائه في تأسيس نقابات في المرفأ ، وهكذا استوحى من هذه الحياة فيما بعد روايته نهاية رجل شجاع .

2- بداياته مع الكتابة :

البداية الأدبية كانت متواضعة جدا ، تدرج في كتابة العرائض للحكومة ثم في كتابة المقالات والأخبار الصغيرة للصحف في سوريا ولبنان ثم تطور إلى كتابة المقالات الكبيرة والقصص القصيرة .

فبعد أن كبر ألقى بنفسه في التيار الهادر لمقاومة الاحتلال الفرنسي ، وما عاناه في السجون الفرنسية ، وذلك عندما أرسلته أمه إلى المدرسة ليتعلم فك الحرف ، حيث احترف بعدها كتابة الرسائل للجيران وكتابة العرائض للحكومة ، فقد كان الوحيد الذي يكتب في حي المستنقع .

أرسل قصصه الأولى إلى الصحف السورية في دمشق ، بعد استقلال سوريا أخذ يبحث عن عمل، وفي 1947 استقر به الحال بالعاصمة دمشق وعمل في جريدة الإنشاء الدمشقية حتى أصبح رئيس تحريرها.

بدأت حياته الأدبية بكتابة مسرحية دونكيشوتية وللأسف ضاعت من مكتبته فتهيب من الكتابة للمسرح ، كتب الروايات والقصص الكثيرة بعد ذلك والتي زادت على 30 رواية أدبية طويلة غير القصص القصيرة منها عدة روايات خصصها للبحر الذي عشقه وأحبه عندما عمل جنديا وبحارا في المراكب البحرية.

وفي عام 1948 انتقل حنا إلى بيروت حيث أمضى بعض الشهور قبل أن يستقر في العاصمة دمشق ، حيث بدأ نجمه يصعد تدريجيا مع روايته المصاييح الزرق وعمله في الصحافة في جريدة الإنشاء ، كما عمل في السياسة ، وقد تزوج من السيدة مريم التي لم تفارقه أبدا ، وقد أنجبت له خمسة أولاد بينهم صبيان هما سليم وسعد وثلاث بنات سلوى ، سوسن وأمل ، لكن عمله في السياسة أدى به إلى الرحيل إلى بيروت مجددا ثم إلى المجر وأخيرا إقامته بالصين خمس سنوات ، وعودته إلى اللاذقية ثم دمشق ، حيث عمل في كتابة المسلسلات الإذاعية بالفصحى والعامية.

الشراع والعاصفة رواية أفاده في كتابتها عمله في البحر ، والاختباء في الغابات أيام مطاردة الفرنسيين وفر لها المادة لكتابة الياطر والتي لم يكتب الجزء الثاني منها.

وفي إحدى قصصه الكتابة على الأكياس يصور حنا الظروف الصعبة التي ميزت طفولته ، وكيف جعل منه سوء التغذية صبيا نحيلًا غير قادر على القيام بعمل جسدي شاق ، وحين أحس بضرورة مساعدة عائلته المعذمة ماديا ، ذهب إلى الميناء ، حيث اكتشف عدم قدرته على رفع الأكياس ، فشعر بالأسى ، وحين برزت حاجة لكتابة بيانات بسيطة على الأكياس ، اختاره المعلم لأنه يتقن الكتابة . ويذكر في القصة أنه حين التقى بمعلمه في دمشق بعد مرور سنين طويلة ، وكان بصحبته صديق يعرف كليهما

قال ذلك الصديق للمعلم : (إن حنا كاتب معروف اليوم ، قال ذلك الرجل البسيط ، نعم أعرف ذلك ، لقد بدأ لكتابة عندي ، على الأكياس).

يقول حنا : (لقد تقضى العمر ، في حلقاته المتتابة ، بشئ جوهري لدي هو تحقيق إنساني ، من خلال تحقيق إنسانية الناس . أنفقت طفولتي في الشقاء وشبابي في السياسة ، ولئن كان الشقاء قد فرض علي من قبل المجتمع ، فعشيت حافيا ، عاريا ، جائعا ، محروما من كل مباحج البراءة الأولى . فان السياسة نقشت صورتها على أظفاري بمنقاش الألم ، فتعلمت مبكرا ، كيف أصعد الألم الخاص إلى الألم العام ، وكيف أنكر ذاتي ، وأنتصر على رذيلة الأنانية ، وكل إغراءات الراحة البليدة ، التي توسوس بها النفس ، فكان الإنسان في داخلي إنسانا تواقا إلى ما يريد أن يكون ، لا إلى ما يراد له أن يكون . وكان المحيط الاجتماعي الذي نشأت فيه ، بتمام الكلمة ، أميا ، متخلفا ، إلى درجة لا تصدق ، لم يكن في حي المستقع كله ، من يقرأ ويكتب ، كان سكان هذا الحي ، والأحياء المجاورة ، من المعذبين في الأرض ، الباحثين دون جدوى عن الخلاص ، وعن العدالة الاجتماعية التي لا يعرفون اسمها بعد !)

3- مساهمته في رابطة الكتاب السوريين :

ساهم حنا مينة مع لفيف من الكتاب اليساريين في سوريا عام 1951 بتأسيس رابطة الكتاب السوريين ، والتي كان من أعضائها :

سعد حورانية ، فاتح المدرس ، شوقي بغدادي ، صلاح دهني ، مواهب كيالي ، حسيب كيالي ، مصطفى الحلاج وقد نظمت الرابطة عام 1954 المؤتمر الأول للكتاب العرب بمشاركة عدد من الكتاب الوطنيين والديمقراطيين سوريا والبلاد العربية وكان لحنا دورا كبيرا في التواصل مع الكتاب العرب في كل أنحاء الوطن العربي .

4- تأسيس اتحاد الكتاب العرب:

ساهم بشكل كبير في تأسيس اتحاد الكتاب العرب ، وفي مؤتمر الإعداد للاتحاد العربي الذي عقد في مصيف بلودان في سوريا عام 1956 ، كان لحنا مينة الدور الواضح في الدعوة إلى إيجاد وإنشاء اتحاد عربي للكتاب وتم تأسيس اتحاد الكتاب العرب عام 1969 ، وكان حنا أحد مؤسسيه .

5- تأثيره على مسيرة الأدب :

يعتبر حنا مينة أحد أعمدة الرواية العربية في إثرائه لفيوض الخطابات السردية وتمازجاتها التاريخية والواقعية ، كما عده النقاد أبرز اسم بعد نجيب محفوظ على خارطة الرواية العربية المعاصرة ، كما كانت مساهمته كبيرة فيما يعرف بأدب البحر، وذلك لأن الأدب العربي القديم يكاد يكون خاليا من الإبداع العربي البحري ، وكتب تقريبا ثمانية روايات عن البحر ، أما في الأدب العربي الحديث فلا نجد كذلك مثل هذا الحيز اللازم لهذا الأدب . وقد أشار أحد الباحثين إلى أن البحر في أدبه إنما هو مكان وإنسان والله، تتعرف إليه مادة وروحا وتصطاده رمزا وأسطورة وتقرؤه فلسفة لمعنى الحياة ذاتها ، وهكذا نجد أن المرأة والبحر لديه مرادفان للمغامرة والتجربة وارتياح المجهول واكتشافه ، مناقضان للرتابة الاعتيادية ، وهادفان دوما إلى التجديد والتغيير .

إلا أن المحور الأساسي في أعماله كان النضال لأجل العدالة الاجتماعية التي نذر نفسه لها والتي بدونها ستبقى البشرية معذبة ، ثاقبة ، عارية ، حافية ، مجروحة الروح مدماة القلب والمشاعر .

وقد انتشر أدب حنا عالميا وساعد هذا على انتشار تجربته في أوروبا والصين ، بالإضافة إلى الوطن العربي ، فتم ترجمة رواياته إلى سبع عشرة لغة أجنبية : —————

-المصباح الزرق ترجمت إلى الروسية والصينية .

- الشراع والعاصفة ترجمت إلى الروسية والإيطالية .

- الثلج يأتي من النافذة درست في السور بون بفرنسا لطلاب القسم العربي .
- الشمس في يوم غائم ترجمتها منظمة اليونسكو إلى الفرنسية ، وترجمت إلى الانجليزية في جامعة جورج تاون في الولايات المتحدة الأمريكية .
- الياطر ترجمت إلى الفرنسية والاسبانية والرومانية .
- بقايا صور ترجمت إلى الصينية والانجليزية في واشنطن والفارسية والألمانية .
- المستنقع ترجمت إلى الفارسية .
- حكاية بحار ترجمت إلى الروسية.

6- مميزات أدب حنا مينة :

يقول حنا مينة : (لقد فكرت منذ قرأت عمر الفاخوري في الأربعينات ، كيف يكون الأديب من لحم ودم ، وليس من حبر وورق ، وأدركت ألا شئ يجعل الأديب حيا ، مثل أن يباشر الأحياء ، ويخرج من وحدته البودلية .التي لا تتيح سوى السقم والأشباح ، وأن التجربة بأوسع وأعمق معانيها ، بكل أخلاقيتها ولا أخلاقيتها، هي التي تكسو هيكل الأديب باللحم ، وهي التي تجعل الدم يجري في شرايينه ، وبذلك تؤهله لأن يكون خالقا حيا يخلق شخصا أحياء يعيشون بيننا ، ويتنفسون هواءنا ، ويكونون صورة عنا ، حتى إذا عايشناهم في الكتب قلنا : هؤلاء هم نحن) .

كان أدب حنا واقعيًا ، وقال عن نفسه أنه كاتب الواقعية الاشتراكية ، ويرفض الواقعية باعتبارها مدرسة في التعبير الأدبي تأخذ الواقع كما هو ، فالواقع في الحياة في رأيهِ يصير واقعا فنيا في العمل الأدبي ، وهكذا فإن مقولة الانعكاس تعبر عن أشياء الوجود التي تنعكس في الذات الإبداعية ، وهناك تختمر ، وتعود لتعكس الواقع بصورة أخرى : (فنية) .

والواقعية الاشتراكية عند أرنست فيشر تحقق الشروط الآتية :

- تحليل الواقع ونقده من خلال عقيدة واضحة ، الأمر الذي يسمح بفهم جماعي لا فردي للظاهرة الاجتماعية
- التأكيد على انهيار البنى التقليدية وعلى مظاهر الفساد والفقر والتخلف .
- الثقة بالمستقبل والتأكيد على أن هذا المستقبل المتفائل يمكن انجازه من خلال النضال الاجتماعي والتضحية والتجربة .

ويقول حنا : (الواقعية في الإبداع هي غير الواقعية في الحياة ، فالواقعية كمدرسة في التعبير الإبداعي، تستوعب جميع المدارس الأدبية من الرمزية إلى التعبيرية إلى الأسطورية ، إلى رواية اللارواية، وبدعتها التي ظهرت في أوروبا وتسابق عليها بعض المبدعين العرب ، إذ كل هذا مصدره

الواقع ، ماديا كان أم معنويا ، ومن الطبيعي ... ، أن تكون الأسطورة من بعض الواقعية التي أومن بها (...)

وهو يميز كذلك بين القصة والرواية فهما مختلفتان ، ففي حين أن الرواية حياة وبالتالي فهي تتقدم، نجد أن القصة عبارة عن لقطة مفردة من الحياة ، فهي تتراجع — ، وفي رأيه أنه ليست فقط القصة وحدها هي التي تتراجع أمام تقدم الرواية ، بل الشعر والمسرحية وكل الآداب النثرية .

أما عن علاقة المضمون بالشكل ، فقد كان المضمون هو الذي يجذب انتباهه.

يرى أن إقحام السياسة في الأدب دون أن ينبثق عن ذات الأديب ، وضمن شرطه الفني يفسد العمل الإبداعي .

- رصد حنا واقع الصين في بداية الستينات والثورة الثقافية في بناء الصين الاشتراكية في قمة الاضطراب والنكوص والإقدام والحماس والخلاف الذي استحكم بين موسكو وبكين .

وذلك كتبه في رواية الصين الكبرى في ثلاثية تقع في ألف صفحة بعنوان :

- حدث في بياتخو .

- عروس الموجة السوداء .

- المغامرة الأخيرة .

- وقد كتب عن بلاد المجر -هنغارية ، وعن الثورة المضادة في المجر عام 1956 في رواية الربيع والخريف

-كتب عن بلغارية وسبب انهيار بنائها الاشتراكي 1990 في رواية" فوق الجبل وتحت الثلج"

- وقد تحدث عن المجتمعات الغربية فرنسية وإنجليزية ، وما تعانيه من مشكلات وآفات اجتماعية وذلك في رواية " المرأة ذات الثوب الأسود " .

- كتب كذلك عن سبب انهيار العالم الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي وصموده في الصين . في : " الرجل الذي يكره نفسه " .

- وأكثر موضوع طرقه وغلب على رواياته هو النضال ضد الاحتلال الفرنسي ، ووضح أن الاستعمار الفرنسي هو امتداد للاستعمار التركي العثماني الذي كان من قبله ، وهما وجهان لعملة واحدة وهي الاستغلال واستعباد الشعوب ، واستنزافها ، ونهب خيراتها.

7- من أقول حنا مينة :

أ- عن نفسه :

يقول حنا : " أنا كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين ، فالكفاح له فرحه ، له سعادته ، له لذته القصوى ، عندما تعرف أنك تمنح حياتك فداء لحياة الآخرين ، هؤلاء الذين قد لا تعرف لبعضهم وجها ، لكنك تؤمن في أعماقك ، أن إنقاذهم من الخوف والمرض والجوع والذل ، جدير بأن يضحي في سبيله ، ليس بالهناءة وحدها ، بل بالمفاداة حتى الموت معها أيضا .

إن وعي الوجود عندي ، ترافق مع تحويل التجربة إلى وعي ، وكانت التجربة الأولى في حي (المستقع) الذي نشأت فيه في اسكندرونا لمنح الرؤيا للناس ، لمساعدتهم على الخلاص من الجهل ، والسير بهم ومعهم نحو المعرفة ، هذه التي هي الخطوة الأولى في (المسيرة الكبرى) نحو الغد الأفضل ."

ب - عن مهنته ككاتب :

يقول : " مهنة الكاتب ليست سوارا من ذهب ، بل هي اقصر طريق إلى التعاسة الكاملة. لا تفهموني خطأ ، الحياة أعطتني ، وبسخاء ، يقال أنني أوسع الكتاب العرب انتشارا مع نجيب محفوظ بعد نوبل ومع نزار قباني وغزلياته التي أعطته أن يكون عمر بن أبي ربيعة القرن العشرين .

يطالبونني في الوقت الحاضر بمحاولاتي الأدبية الأولى ، التي تنفع الباحثين والدارسين والنقاد ، لكنها بالنسبة إلي ، ورقة خريف أسقطت مصابيح زرق .

ج - عن البحر :

يقول حنا : " أن البحر كان دائما مصدر إلهامي ، حتى أن معظم أعمالي مبللة بمياه موجه الصاخب ، وأسأل : هل قصدت ذلك متعمدا ؟ في الجواب أقول : في البدء لم أقصد شيئا ، لحمي سمك البحر ، دمي مأؤه المالح ، صراعي مع القروش كان صراع حياة ، أما العواصف فقد نقشت وشما على جلدي ، إذ نادوا : يا بحرا أجبت أنا ! البحر أنا ن فيه ولدت ، وفيه أرغب أن أموت الأدباء العرب ، أكثرهم لم يكتب عن البحر لأنهم خافوا معاينة الموت في جبهة الموج الصاخب. لا أدعي الفروسية ، المغامرة نعم ! أجدادي بحارة ، هذه مهنتهم ، البن يتعلم حرفة أهله . احترفت العمل في الميناء كحمال ، واحترفت البحر كبشار على المراكب . كان ذلك في الماضي الشقي والماجد من حياتي ، هذه المسيرة الطويلة كانت مشيا ، وبأقدام حافية ن بحقول من مسامير دمي سال في مواقع خطواتي ، انظر الآن إلى الماضي ، نظرة تأمل حيادية أمنيته الدائمة أن تنتقل دمشق إلى البحر ، أو ينتقل البحر إلى دمشق — أليس هذا حلما جميلا . "

8- روايات حنا ومؤلفاته :

حنا مينة أحد عمالقة الرواية في سوريا والوطن العربي ، وقف في وجه الاستعمار الفرنسي وعمره اثني عشرة عاما وعاش حياة قاسية متراوفا بين العديد من البلدان.

يعتبر حنا أديب الحقيقة والصدق ، عصامي ساهم في اغناء الرواية العربية وعمل باجتهاد حتى أجاد وأبدع ، كتب الكثير من الروايات بكثير من العمق والمعاناة والكفاح والواقعية والحب والجمال .

ومن أهم رواياته :

" المصاييح الزرق " - " الشراع والعاصفة "

" اللياطر " - " الأنبوسة البيضاء "

" حكاية بحار " - " نهاية رجل شجاع "

" الثلج يأتي من النافذة " - " الشمس في يوم غائم "

" بقايا صور " - " المستنقع "

" القطاف " - " الربيع والخريف "

" حمامة زرقاء في السحب " - " الولاة "

" فوق الجبل وتحت الثلج " - " القمر في المحاق "

" عروس الموجة السوداء " - " الرجل الذي يكره نفسه "

" الفم الكرزي " - " حين مات النهر "

" حدث في بياتخو " - " صراع امرأتين "

9- الجوائز التي حصل عليها حنا مينة:

جائزة المجلس الأعلى للثقافة والآداب والعلوم بدمشق عن رواية " الشراع والعاصفة " 1968.

1- جائزة سلطان العويس من الدورة الأولى 1991 على عطاءه الروائي.

2- جائزة المجلس الثقافي لجنوب إيطاليا ، عن رواية " الشراع والعاصفة " 1993. كأفضل رواية ترجمت للإيطالية.

3- جائزة " الكاتب العربي " التي منحها اتحاد الكتاب المصريين بمناسبة مرور ثلاثين عاما على تأسيسه ، اعترافا بموقعه المتميز على خريطة الرواية العربية.

4- وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة بتاريخ 2002/05/28.

المصباح الزرق :

" المصباح الزرق " رواية ضمّت مجموعة من الأفراد بقوالب وشخصيات مختلفة صورت تواجدها ضمن مواقف وظروف ، تراوحت كلها بين مجموعة من الأماكن ، من الشارع إلى الدكان إلى عرض الطريق وحاول من خلالها الكاتب " حنا مينة " متابعة شخصية البطل " فارس " في حياته وعلاقاته مع الآخرين ، باعتبار هذا البطل شاب يبلغ من العمر ستة عشر عاما ، مولعا بالمغامرات ويستهوئى الحرب .

ويبدأ الكاتب روايته ، بالتعريف بشخصية فارس في بدء الحرب العالمية الثانية ثم يقوم هذا الفتى بزيارة معلمه في يوم ، إذ يجده يجهّز نفسه للسفر مخلفا زوجته وولده ، فأسف عليه فارس ويغادر منزل معلمه إلى نادي الست بربرة فيجده مكان يتردد عليه الفرنسيين الذين تواجدوا في كل مكان وأثروا على كل شيء.

فيخبر فارس الست بربرة بسفر معلمه فيجدها على علم بذلك ، فيغادر وهو في ضيق من أمره مما يجعله ذلك يلف في الشوارع إلى أن يعود إلى المنزل ويجلس الجميع لسماع أبي فارس وهو يحكي على هروبه من المعسكر ، فيجعل فارس يسأل والده ويحاوره ، ثم يعود الأب ليكمل عن قصة وقوعه في قبضة رجلين ثم نجاته منهما ثم عودته إلى بلده حيث وجد عائلته قد انتقلت من مكان سكناهم القديم.

ثم ينتقل بعد ذلك الراوي لوصف الحي والدار الكبيرة ، والناس وأهالي الحارة ، أما دار أبي فارس وهي دار كبيرة غرفة لأبي فارس ، وغرفة مقابلة لها لصقر وأمه ، وملاصقة لها غرفة مريم السودا وزوجها نايف ، والساحة أين يجلس أهل الدار ، وهم يسمرون وكذلك خروجهم بالراديو إلى الحقول ، لكن حنا يتأسف في سرده على أن هذا الحال قد انقضى ولم يعد كما كان . أما فارس فقد تعرف على بنت الجيران التي رمت الماء من النافذة ولم تنتبه لفارس وإخوته ، إلا أن فارس عذرها ولم يقل لها شيئا ، ثم قام فارس وانضم إلى الصبية الذين كانوا يلعبون ، وبعدها ضجر ذهب إلى مقهى الشاروخ وشاهد ما دار بين الجالسين من نقاش وشجار بين الجابي والشاروخ الذي فض نزاعهما جريس المختار.

-المصباح الزرق-حنا مينة-دار الآداب-بيروت-ط1 1984

وغادر بعد ذلك فارس المقهى وراح يجول في الشوارع ، ولاحظ الطلاب الأزرق المعتم على المدينة ، ثم سمع الحوار بين المحاربين القدماء. ثم مر على فارس الصقلي وهو ذاهب إلى الصيد ، فطلب منه بأن يذهب معه فوافق فارس ، حيث دار حوار وحديث طويل بينهما ، إلى أن ظهر شاب فلاح اسمه نجوم فذهب معه فارس ليلتئزها ، بينما مكث الصفتلي يسمع حوار الصيادين.

وبعد هذه النزهة عاد فارس لبيت ولاحظ قلة الخبز، فلجأ أبوا فارس إلى المختار جريس الذي يختبئ وراء مفهوم الحرب من أجل المراوغة وعدم تحقيق مطالب الشعب ثم أرسل ابنه فارس إلى المختار لطلب الخبز والحصول على البطاقة ، فوجد فارس الدكان يعجّ بالرجال والنساء المطالبين بالبطاقات ، ثم انصرف المختار بدعوة من البلدية وانصرف الناس من الدكان وبقي الصفتلي لمراقبة

بشارة القندلفت ، ثم عاد الصفطي للبيت ثم خرج مع مريم السودا لإحضار الكاز ، وفي طريقهما لمح الصفطي القندلفت فسار وراءه واتجهت مريم لدكان الكاز ، الذي كان مليئا بالناس الحاملين للزجاجات مطالبين بالكاز ، وبعد أن أخذ فارس ومريم زجاجات الكاز سارا عائدين ، في حين أن الصفطي قد اختفى عن ناظره القندلفت ، فمكث في مكانه ينتظره ، وعندما أوشك أن ينسحب ظهر القندلفت وتبين أن المرأة التي يلاحقها هي راهبة كلف القندلفت بمرافقتها لجمع التبرعات.

فعاد إلى مريم التي ترك لها زجاجته والتي أخفتها لمداعبته إلا أنها وقعت وانكسرت. وفي ظل الظروف التي يعيشها السكان ، تعطي البلدية تعليمات تحسبا للغارات الجوية وتحدد حملة المحامل والملاجئ ، وفي هذه الأثناء انطلق زموir سيارة أرعب الناس واتضح فيما بعد أنه خطأ ، هذا الحادث الذي جعل الجميع يستقبل إشارة الخطر الحقيقي بتساؤل مع استهزاء ، وتقدم المختار والحراس من أجل الإنقاذ وتخوفهم من الغمامة التي اكتشف فيما بعد أنها لحاف تحته عبد مقصود وعائلته، الموقف الذي ظل يضحكه الناس لمدة بعد الحادث.

وبعد فترة قل الخبز فأصبح فارس يتنقل من فرن إلى فرن من أجل الحصول على الخبز لكن الأفران كلها تعج بالزحام ثم يعود إلى فرن حسن حلاوة ويتزاحم مع الناس ، فيقع شجار حاد بين حسن والشباب والجموع الموجودة ، هذا الشجار الذي تحول إلى معركة بين الفرنسيين والوطنيين. وبعد وقوع الشجار تدخلت الشرطة وأخذت فارس والباقيين إلى المخفر المركزي.

ثم يعود الكاتب ليصف أم فارس وهي في المعمل ووصف شخصية رئيس المعمل رشيد أفندي وحال المعمل والوضع الكاتم على نفس أم فارس. ومن جهة أخرى تذهب مريم السودا وصقر لتسليم الطعام لفارس بعد زجه في السجن الذي وضع فيه انتظارا للتحقيق الذي طالت ساعاته .

ثم اقترب الرقيب الفرنسي وترجمانه من المساجين وعند مغادرته انهال عبد القادر على حسن حلاوة ضربا فتصارعا إلى أن تعبوا ، فتدخلت القوات الفرنسية واشتعلت المعركة بينهم ، وعندما رأوا حريقا انسحبوا وفي آذان الناس خارج السجن وقعت كلمة أعدموهم. فسمعت مريم ذلك فأعادت الطعام لأهل فارس وجاء ورائها المختار يطلب الطعام لفارس ما جعل الحادث مجرد سوء فهم.

ثم جلس الجميع في الدار فراحوا يتحاورون حول ما وقع وما مدى صعوبة السجن وأن فارس لم يخطئ فهو مطالب بحقه.

وعاد حنا ليصف غضب الطبيعة ومزجه بغضب الناس وحال المدينة التي خرج فيها الطلبة المتظاهرون ضد الاستعمار، إلا أن المستعمر جعل المظاهرة تضطرب عندما صوّب شاب ، فافترق المتظاهرون على وعود كاذبة من السلطات في زيادة كميات الدقيق وإطلاق سراح الموقوفين. وكان كل ذلك كذبا حيث نقلوا المساجين من اللاذقية إلى حلب وكان فارس خائفا من السجن وجعل يراقب الجدران وما كتب عليها ويترصد الجنود وما سيفعلونه بهم ، وكان يريد فارس أن يكتب كذلك ما يراوده من أفكار وخواطر على الجدار ، لكنه لم يجد قلما يحقق به رغبته في ذلك.

ثم وضع فارس مع عبد القادر في القاوش ودار حوار بينهما إلا أن عبد القادر كان كتوما نوعا ما ، وطلب هذا الأخير من المساجين أن يقوموا معه بتنظيف المكان لأنه يقول بأن القذارة والشهامة لا تتفقان.

وقبل سياق المساجين إلى حلب أرسل المساجين خبرا إلى ذويهم ، وخبر فارس وصل إلى دكان الحلبي وتواصلت حياة الناس في شقاء وطالت لكثرة المصائب والانتظار الدائم للفرح ، ومرور الزمن هذا جعل فارس رجلا من الرجال فشارك في معركة مع عبد القادر بسبب جرذ وجد في جرن العدس ، فقدم احتجاجا لمدير السجن الذي رفضها بدوره ثم عمل المساجين للتحضير لإضراب ما جعل الخبر يصل إلى الصحافة ما أدى إلى تراجع الإدارة وتحسينها للطعام إلا أن المدير لم يسكت على عبد القادر وانتقم منه ووضعه في سجن وقبل أخذه طلب منه فارس كتب التي هي ضد الفرنسيين إلا أن عبد القادر لم يتمكن من إعطائه الكتب حيث أحيل إلى المحكمة العرفية .

أما أهل المدينة فقد استمرت حياتهم في شقاء في ظل الحرب ، واستمرار حركة الناس ونقاشات حيث أن الصفطي يجلس مع عازار الاسكافي ، إلا أنهما سرعان ما يختلفا ويتنازعا ، فيذهب الصفطي إلى محمد الحلبي الذي وصفه الكاتب بأنه رجل طيب أقلع عن كل ما هو غير صالح وهو فرام اللهم يفر لكل نزاع ليفضه ، وفي أيام الشتاء يشعل موقد الدكان ويترك الناس حوله.

أما الصفطي فله دور آخر حيث يقوم بقراءة قصة الزير سالم أبو ليلي المهلهل فيتفاعل معه المستمعين ، أما أبو فارس فيبقى في البيت ويسهر مع أهل الدار ، وفي الحي تم اعتقال الشاب كان مدافعا عن أهله ، حيث يأخذه الفرنسيون فيتدخل المختار ورئيس البلدية وضابط انكليزي للاعتذار الذي قبل . لكن بعد مقتل جندي انكليزي أوقف الشاب والحلب وآخرين ثم أفرح عنهم لبراءتهم.

وللابتعاد عن المشاكل أصبحت الخمارة تغلق ليلا وعمل الرجال على منع نسائهم من الخروج ليلا، لأن الجنود نشروا القلق والرعب ووضعوا أيديهم على كل ما تطاله فسادت الفوضى والفساد.

وبعد مدة من الزمن عاد فارس إلى أهله بعد أن خرج من السجن ، ففرح والديه بعودته ، واستقبله أهل الحي بحرارة وحب ، وسأله نايف عن أحواله وكيف كان السجن ، فيقص فارس ما مر عليه وهو يراقب والده وكيف يقع كلامه عليه ، فيصف السجن على أنه حفرة عميقة ، بئرا سد فمها وفتحت في جوانبها العليا عند حوافها وتصويره لهم كيف يكون الشخص داخل مكان كهذا وحسده لغيره على نسمة الهواء وخصلة الشمس ثم يعترف فارس بأنه خاف في أيامه الأولى، وكان أبو فارس قد ازداد اعتزازا وفخرا بولده.

فتغيرت حياة فارس إلى حياة جديدة بعد عودته حيث أصبح أكثر شجاعة وأكثر فتوة ، وبفضل عودته هذه التم شمل أهالي الدار الكبيرة من جديد.

أما مريم السودا فقد غضبت من فارس لأنه لم يقبل يدها واعترافها في نفس الوقت بأن الغربية قد صيرته رجلا ، ونايف نظر لزوجته معاتبا على أن أبا فارس له ولد وكاد أن يضيف إلا أنه امسك لسانه

داخل حلقه بصعوبة فقالت مريم وهي اشد منه حزنا لا تعترض على حكم الرب ! فابتسم أبو فارس وقد أدرك مغزى حوار مريم وزوجها ، فقام يغير دفة الحديث ، ودعا أهالي الدار الكبيرة للعشاء ، فانزعج فارس من طعام والدته ، ظنا منه أنه سيجد طعاما أشهى بعد هذه الأيام التي قضاها في السجن ورأى تغير الحال إلى هذه الدرجة ، وقال له والده سترى بعينيك كل شيء ، وسكت لأنه لا يريد أن يتكلم في هذا الموضوع وسكت الجميع حوله ، ورائت على الجو سكينة لا تطيقها أم فارس ، سكينة ثقيلة ، تفرض نفسها ، فلا يعمل الأب على تبديلها ولا يعرف لها الباقون سبيل .

وفي الغد عندما خرج فارس وجد أن ما أخبره به والد صحيحا ثم عاد فارس ليسترجع ذكرياته وكل ما مر معه منذ أن غادر البيت في ذلك الصباح الطي انتهى به إلى السجن ، وراح من ثم يتذكر السجناء ونظراتهم الحاملة الفرحة تخترق كأسياخ ثاقبة جدران السجن وهم يتعلنون بهذا الأمل .

ثم التقى فارس برندة وارتبأكه عند رؤيتها لكل صباح عندما تذهب مع والدته إلى المعمل ومراقبته لهما حتى تغيبان عن الأنظار وأسفه وربما لأول مرة في حياته لأن مظهره لم يكن أفضل مما هو عليه .

ثم يخرج إلى السوق وهو ينظر إلى كل شيء بنظرات فاحصة حنونة مفعمة بعاطفة الود القديم ، ووجد كل شيء كسابق عهده مقهى الشاروخ ذاته ودكان عازار الاسكافي ذاته ومطعم الجبلوي ودكان حكمة الحلاق حتى الوجوه لم تتغير، سوى أن الضجة المعتادة قد خفتت ، وحب الصفتلي والشاروخ والحلي و الجبلوي لفارس واستقباله بكل احترام.

فعودة فارس جعلت من أمه تبلغ كل من تجده في طريقها بخبر رجوعه وخروجه من السجن ، أما رندة فتتابع كلامها بإصغاء تام مرهفة الأذنين ، وكأن ألفاظها قد استحالت إلى أنغام وفارس يواصل طريقه مارا على كل الذين يعرفهم ومن بينهم نادي الست باربرة الذي كان يتوسط شارع " فرنسا " بين البحر والقلعة ، وسأل عنها حيث وقع في صدمة لخبر رحيلها وزاد عليه شعوره باليأس وتعكر مزاجه لعد وجود العمل.

وبالرغم من أن الوقت الذي قضاه بين خروجه من السجن وساعته تلك قصرا وبسيطا إلا أنه أحس بالشقاء والفراغ لأنه عاطل عن العمل. ولأنه عرف في ذاك الصباح لونا جديدا من الإحساس يحتاج إلى لون جديد من الحياة لا يتأمن بدون عمل.

فوقع في حيرة بين السجن والبطالة وأيهما أقسى . وقد اعترف في البداية أن البطالة أقسى وما لبث أن غير رأيه بأن السجن أقسى وبعد أن طغى يأسه ، وجد أن البطالة والسجن والوجود دفعة واحدة وتابع سيره إلى البحر وقد مر على مستودع التبغ وتذكر رنده ، فالتمع في ذهنه خاطر مفرح لكنه عاد إلى شأنه محاولا نسيان هذه " الزهرة " التي نبتت في غير أوانها ، خادعا نفسه بفكرة انه لا يليق بالفقير أن يحب ويتزوج .

ثم انصرف فارس إلى بيت معلمه صاحب المتجر ، وعندما دخل راح يجول بناظره في ردهة البيت، كانت تقوم في صدر القاعة صور فوتوغرافية كبيرة لمعلمه ، هذه اللوحات أعادت إلى مخيلته ذكرى معلمه الذي ذهب إلى الحرب ولم يعد. وكان راسخا في ذاكرته معالم تلك الصبيحة التي رأى فيها معلمه لآخر مرة ، ثم تأتي معلمته لتستقبله ، فيقص عليها فارس أخباره ، وما حدث له بعد أن أغلق المتجر كما حدثها عن السجن ، ثم تقص عليه هي بلهجة مؤثرة نبأ وفاة زوجها ، فلاحظ فارس أن معلمته لا تبكي وبرر ذلك في نفسه بأن الأغنياء لا يكون أو لأنها عادة الأجانب وتعود لتسأله عن عمله ، فيقص عليها قصته كاملة وأنه يبحث منذ الصباح عن عمل فتدعوه إلى العودة في الغد وأنها ستسعى لأجله ، فينصرف وهو يفكر في نظرات معلمته وبدعوته للعودة وبإلحاح. وفي عصر ذلك اليوم وجد فارس نفسه أمام رندة فلحق بها ، وفي سيره اصطدم بطفل وبذل أن يرفع الطفل استمر في سيره حتى لا تغيب رندة عن ناظره ، إلا أنها تأنت في مشيتها حينما انعطفت ، ثم تحدث إليها وافترقا ، وأكمل طريقه فرحا بعد ذلك إلى أن وصل إلى البيت ، وراح يقص على والده كل الأحداث التي جرت معه في ذلك اليوم ، فقط رندة استثنائها من الحديث ولو سأل نفسه عن السبب لأعياه الجواب ، كان والده يصغي إليه صامتا أما والته فكانت تبتسم وهي تنظر إليه ولا تشبع وسألته هل انه رأى الجميع ، وهل قبل يد الصفلي ؟ فأجابها بالنفي ، فلامته هي بغير قسوة ، وأخبرته بأنه كان عليه أن يفعل ، وان محمد الحلبي قد مشى على رأس المظاهرة عندما سجن فارس ، وراحت تقص عليه أحداث تلك المظاهرة ثم عاد فارس ليتحدث عن عبد القادر أما والده فقد شجع ابنه على العمل لأنه هو الهدف وليس الخبز ، ثم أتى الجميع الصفلي والمختار والقند لفت إلى البيت وراحوا يتحدثون عن الحرب فانسجم فارس معهم وعندما عادت رندة إلى البيت نامت وهي تفكر بما صادفته في يومها ، فارس وأم فارس وأحست بصلة جديدة تربطها بهذه الأم ، وفي الصباح استيقظت باكرا وخرجت إلى بيت أم فارس حيث كان فارس ينتظرها ، أما والده فكان جالسا على طراحته ، يراقب ادوار هذه المسرحية الغرامية مستعيدا ما سمع عن العشاق مفكرا بتجاربه الخاصة في هذا المجال ، فحينما أطلت رندة أشرق شيء ما في عالم فارس الذي اكتفى بالنظر إليها دون أن يقول كلمة أو يقوم بحركة تقضحه ، أما الأب فقد ألقى نظرة في وجه الفتاة ، وفكر أهذه ليلي التي جن بها ابنه ، واعتقد بأنها هي حقا ، وخرج تاركا المجنون أن ينظم قصيدة حبه بالطريقة التي يختارها ، ثم أخبرت أم فارس رندة بأن فارس لم يأكل بالأمس ، ففرحت رندة لأنها سمعت بأن العاشق لا يأكل وها هو فارس لا يأكل ، وعزمت في نفسها أن تتصرف كفتاة عاقلة ، وتخفي في الأعماق من قلبها كل ما يمكن أن يكشف حقيقتها ، فالبنت الطائشة كما تقول أمها هي التي تعلن أفكارها وعواطفها ، وبعد أن جهزت الأم نفسها خرجت هي ورندة وغادرتا البيت إلى المعمل ، أخذ فارس يراقبهما إل أن اختبئا على ناظره ثم انصرف بعد ذلك إلى السوق منتقبا عن عمل ، وبعد طواف قصير جلس فارس عند مكسور المبيض ، وأخذ يراقب الدكان ويرى معاملة مكسور القاسية التي يعامل بها ابنه وبيرم ، وسماعه الوعود الكاذبة التي يحفزها مكسور بها ، ثم راح يكلمه عن المظاهرة وخروجه هو أيضا فيها ، ولأنه كان

من أولئك الذين يربطون الأفكار بشكل عجيب ثم يقفزون من حديث إلى آخر بسرعة ، فراح يتذكر كل ما مضى معه ويصف بلده أنطاكية وكيف استعمرها الأتراك وأخرجوه من ديارهم ، فاكتأب فارس لحال هؤلاء الثلاثة ، وهو يعملون ويحلمون ، فمكسور باله على بلده وبيته وحقله ، وابنه سالم على كعكة ، وبيرم حلمه في امرأة تعينه على وحشة الحياة.

ولما مل هذا التأمل الذي استثار سخطه وغيظه ، نهض ناقما ومضى يحلم هو الآخر بعمل ، فذهب من جديد إلى معلمته ، فطلبت منه الخادم أن يدخل غرفة المعلمة ، فدخل وتوقف مرتبكا على العتبة ، ثم تقدم إلى الغرفة ، وسألت عن الشغل وهل يزال عاطلا ، ثم قالت له بأنها وجدت له عملا في مصلحة الدفاع السلمي ، فشكرها فارس وهو مضطرب ، وسألها متى يبدأ ، فطلبت منه أن يعود في المساء ليأخذ الرسالة التي سيقدمها في المصلحة.

ومن جهة أخرى كان الصفطي يجلس في بيته الذي يشبه المغارة يصلح عدة الصيد ، وشجاره مع زوجته - التي تشكو الروماتيزم- من أجل أن يبحث عن عمل جديد غير الصيد.

ثم خرج الصفطي بعد ذلك إلى السوق وقصبتة على كتفه ، ومروره بـدكان محمد الحلبي ، وعازار الاسكافي واستهزاء الصفطي بعازار نظرا لخلافهما الدائم ، ثم ذهب إلى بيت نايف الفحل ليأخذه معه إلى العمل فلما دخل الدار كانت مريم السودا وزجها مركونين في غرفتهما المئتمنة صامتتين عابسين وقد فرغا لتوهما من العراك ، وكان ظاهرا أن الفحل قد ضرب مريم وأن هذه خرمت وجهه ، ولولا وجود صقر لأدما أحدهما الآخر.

ثم قامت مريم إلى بيت أبي فارس وصاحت بفارس وهي تمد رأسها من النافذة : ضبطتك يا أزعر ، متى رجعت إلى البيت ؟.

فقال لها فارس بأنه عاد عندما كانت هي تقذف الفحل بالقباقب ، فسألتها لما لم يخلصهما فرد بأنه مشغول ولديه موعد غدا ليتسلم الشغل وبدأ يتحضر للقاء معلمته.

وأخبر مريم بأنه سيذهب لأخذ رسالة العمل ، وفي نحو الساعة التاسعة ليلا ذهب إلى بيت معلمته ، التي استغلته في ليلتها تلك ، ثم عاد في اليوم التالي إلى البيت وقت الضحى وهو بحاجة شديدة إلى النوم ، وقد تسكع في الشوارع حتى هذا الوقت ليضمن ذهاب والده إلى الشغل . فكثرت تساؤلات أهل الدار ومريم خاصة عن فارس وأين بات ليلته وحيرته على أراء أمه وأبيه ورنده ، وذهبت مريم إلى المصنع لإخبار أم فارس بعودة ابنها ، وقد نشرت خبره مع معلمته للجميع لتريح نفسها وتبرهن لهم أن الناس يتقاتلون كما تتقاتل هي والفحل ، وبعد جلوس الجميع في الساحة حاولت مريم أن تبدأ الحكاية وتشعل النار على فارس، وتهيج والده لكنه ظل ساكتا وقال كلمة فقط ، وهي لا تتم خارج البيت مرة أخرى.

وكان فارس فرحا باشتغاله ملاحظا في حفر الملاجئ لكن الاسكافي و الجبالوي، بددا فرحه هذا وشبهوا عمله بحفر القبور.

ومن جهة أخرى كان فارس متشوقا لرندة وافتتانه بسيدته ووقوعه في مشكل مع رندة التي طلبت منه أن يختار بينها وبين سيدته ، وهو رافض لفقد عمله وحاول أن يختلق عليها أكاذيب.

ثم أصبح بعد ذلك يتم عمله ويعود مباشرة إلى البيت ، وعندها طلب منه أن يحفر كسائر العمال ، فأدرك أنها فعلة معلمته ، فقام بذلك وحفر بيده ليثبت لسيدته انه رجل ويتحداها ، وعند ذلك وقف على قول الاسكافي بأن عمله هو حفر للقبور وأحس بذلك فعلا عندما كان في الأنقاض.

وفي فترة استراحة العمال، تحدث فارس مع شاب حاول أن يخفف عنه تعبته، فأدرك أن هذا الشاب هو نجوم الراعي، وعرض عليه نجوم الذهاب إلى ليبيا وترك كل هذه المتاعب حيث كان له أسلوب إقناع مميز. وترك فارس يفكر في حرب ليبيا وجمع الأموال منها ، وقد لاحظ الفقر في بيوتهم وأثاثه القديمة وجدرانها ، مما جعل فكرة نجوم تدور في ذهنه ، وراح يتمشى في الشوارع ، ثم ذهب إلى دكان الحلب فوجد رجالا ولاحظ تصرفاتهم وضحكاتهم ومن هؤلاء أبو جميلة الذي افتخر بفارس عندما حكى له الحلبي انه ضرب حسن حلاوة ، وأراد لو انه قتله ثم انسحب فارس من هذا المجلي وعاد للبيت ، ثم استلقى وثبت على فكرة انه لن يذهب وتصور رأي الرجال في دكان الحلبي لو انه كان جنديا عند الفرنسيين.

وفي الصباح استيقظ فارس وما زالت أفكاره تدور في ذهنه ، ثم في المساء أسرع فارس وبذل ثيابه للقاء رندة شارع " سانت اليكس " ، وعندما لقيها حدثها عن فكرة السفر فانزعجت. ثم عاد الراوي لوصف عام للمحيط من الشمس ، القوارب ، المستشفى الكبير ، ثم مرورهما بتمثال القديسة "الكسندرة"، الذي لا يعرفان عنه شيئا ثم روى لها فارس حكاية الراهبة التي أحببت ثم عادا إلى البيت.

ومن جهة أخرى كان فارس مستاء لانتهاء الفترة المحددة للعمل ، فعاد للتسكع في الطرقات ، فالبقاء بدون عمل لم يناسبه ، مما جعل نجوم يعود ليزن عليه بفكرة ليبيا والسفر ، فيجد بأنه ملزم بعد أن فكر في أعمال أخرى وإحداها العودة إلى معلمته ، فقرر الذهاب إلى جريس المختار دون أن يعرف ذلك احد ، ووصف مروره أمام بائع الأرز ثم بملصق نشره الحلفاء " الحريات الأربعة " ووصف جوه ، ثم اصطدامه بالعجوز وهروبه منه إلى أن وصل بعد كل ذلك إلى جريس المختار الذي اخذ يتحدث عن عمله وأولاده ثم قاطعه خلال ذلك واستشاره حول فكرته ، لكن المختار تردد وخاف ولم يحدد إجابته ، ثم غادره بعدما طلب منه وعد بكتم السر ، وعاد وأخذ هويته وتوجه إلى البحر آخذا مكانا في صفوف المتطوعين أمام الثكنة انتظارا للدور ، وحين ذلك شاع ذهابه وتطوعه في كل حي ، فالأم حزنت والأب كتم ورندا تنتظر العودة ، الحلبي قال خدعوه ، الاسكافي فقط بذلك احد زبائنه ، أما جريس المختار فقد تجاهل الموضوع ، وطلب أبو فارس من نايف أن يذهب ويقول لفارس بأنه لا يريد أن يرجع إلى البيت ، بالرغم من انه حاول أن يقتنع نفسه بأن التطوع في جيش الفرنسيين شيء عادي ثم يعود ليتذكر بأنه خالف أوامره مرددا في سريره انهى فارس لم يعد لي ابن والسلام.

تلقى فارس خبر رفض والده لعودته إلى الحي بالرغم من انه كان لا يريد العودة حتى لا يرى الحلبي وأبو جميعة ، ومكث في سوريا منتظرا السفر إلى ليبيا ، وقد وجد نفسه في فراغ أمضاه في الخمرات وأدمنها ، ثم عاد معلمته بسبب ضياعه وفقدانه الأمل وانحداره إلى القاع إلا أنها طردته شر طردة وحاول أن يضربها ، إلا أن الفرنسي الذي كان معها ضربه إلى أن وجد نفسه في السجن ، إلى أن حان وقت السفر حيث توجه الجنود إلى القوارب والعائلات تودع أبنائها ، وبقي أبو فارس يدخل في البيت ولم يذهب ليوودع ابنه في حين ذهب صقر وأم فارس التي كانت تنتظر إلى ولدها باكية ومريم تسليها ، ثم جاء أبوه أخيرا ملبيا طلب أم فارس إلا انه لم يقل أي كلمة فأخذ فارس يقبل يد والده ويكي وفي تلك اللحظة وصل أبو رزوق الصفطي متعبا ، وقال بان أم رزوق تموت فوضع له فارس علبة تبغ ودراهم في جيبه ، أما في الجانب الآخر من القارب كان يجلس نجوم ، وبذلك غادر فارس مع هذا الأخير مودعا الجميع الذين تفرقوا حين أبحرت القوارب.

وبعد فترة قصيرة مات أبو رزوق الصفطي بسبب حزنه الشديد على زوجته التي مرضت وشفيت فيما بعد ، وبدأت مناحة أم فارس مع مريم السودا ، أما أبو فارس فأخذ يدخل وبدأ يتذمر ابنه والحرب التي شارك بها هو ، وكيف انه وجد كل شيء تغير عندما عاد ، وتذكر أبو فارس شوقه إلى البيت الذي وجد بقربه امرأة فتمنى أن تكون أمه ، إلا انه اكتشف أن أمه ماتت ، وعائلته قد غادرت المكان ، ووجدت فقط الكلب ، وكان وهو يفكر قد احرق السيكاارة الرابعة ومعها احرق إصبعه ، فرماها ووصل إلى أن حكاية ابنه تشبه حكايته والفارق الوحيد بين حكايتهما هو انه (أبو فارس) عاد أما فارس لا يدري أيعود أم لا ؟.

كل ذلك كان وقد غادر الصفطي الوجود فتم تشييع جثمانه إلى مثواه الأخير تاركا الناس يتحاورون حول سبب وفاته ، فصاحب القبو الذي كان يسكنه الصفطي رأى بان القبو هو السبب فنصح الجميع بعدم سكنه.

ومن جانب آخر فقد سمعت مريم السودا خبرا آخر ، حيث همست امرأة في أذنها ، بأن رندة مريضة وطلبت منها بان لا تقول ذلك لأحد إلا أنها لم تتماسك نفسها فأخبرت أبا فارس بذلك الذي اخبر بدوره أم فارس . ومع مرور الوقت تناسى الناس ما سبـق ، ونسوا كذلك فارس ، وانشغلوا بأحوال الوطن وأمر إخراج الفرنسيين وذاك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حيث عادت المصابيح الزرق لتضيء ، واجتمع أهل الحي للمطالبة بالحقوق ، ثم دار حوار بين المخاتير (أبو سليمان جريس) حول الإضراب والمظاهرة ، أما عبد القادر الذي كان يحب مراقبة الأدوار قبل أن يلعب دوره فقال : مظاهرة أمس ابتهاج بانتهاء الحرب ، ومظاهرة غد ابتهاج لتحقيق الوعد أو الجلاء.

أما أبو فارس فلم ينسى ولده ، حيث تذكر مشهده الأخير الذي رآه فيه عند وداعه ، وتذكره كذلك عندما حكى له نجوم تفجر القنابل وسقوط فارس ميتا ، وكان يعرف بان هذا الفتى هو من قاد ابنه إلى ذلك ، ولكن لا حيلة له حينئذ. ومع أن أبا فارس يعرف كذلك بان ابنه قد مات إلا انه لم يقل ذلك لام

فارس التي كانت تنتظر ولدها بفارغ الصبر وتترقبه في الأمسيات عند البحر ، والى جانب الأم المنتظرة كذلك رندة تنتظر العودة وأبو فارس متردد بين أن يقول أو لا يقول.

واستمرت الأوضاع على هذه الحال ، الانتظار عند أهل الدار ، والإضراب عند أهل الحي ، أما الباقون فقد كان الحلبي يغلق الدكان ويفتحه أحيانا ، والجبلاوي ذهب إلى " جبلة " ثم عاد ، علي المكسور باع كل شيء وعاد إلى أنطاكية التي وجدها سرقت وهدمت ، فعاد دونما شيء ، ثم راح يصيح بأن الأتراك هجره من البلدين ، وبيرم تخلى عن حلمه بالمرأة وحوّله إلى العمل ، أما أبو فارس كان قد علق صورة مكبرة لابنه فأراد أن ينزعها ثم تراجع وتركها لكن تحاشى النظر إليها.

أما رندة فتوفيت ، وتركت جوا كئيبا آل إليه الحي والأهل والأقارب ، وبعد كل تلك الأحزان لم يستطع أبو فارس أن يتمالك نفسه وعندما استيقظت أم فارس في الصباح وجدت فراشه مبللا فاعتقدت بأنه مريض في حين انه بكى لكل ما مضى من مأس وجراح وأحزان ، ثم تعالت أصوات المظاهرات خارج البيت تبعها الجميع هاتفين بأحـــــد أمرين : الموت أو الجلاء.

" فالمصاييح الزرق " رواية تصور حياة جماعة من الناس البسطاء أيام الحرب العالمية الأخيرة وتصويرها هذه ما هو إلا نقلا لواقع الحياة باللاذقية وسوريا ، فهي عموما تعبيراً عن حالة المعيشة في البلاد وخصيصاً أيام الحرب.

فعمدة هذه الرواية هي أزمة الحرب والقصد من ذلك ليس الحرب في حد ذاتها ، وإنما مخلفاتها عن الناس أو بتعبير آخر حياة الناس وظروفها في ظل الحرب. فقد حوّلت القصة الحرب التي غيرت مجرى حياة الناس إلى نوع من البانوراما تلعب فيها شخصيات متحركة على يد الكاتب " حنا مينة ".

المصاييح الزرق-حنا مينة

2- شخصيات الرواية :

1 - الشخصيات الرئيسية : وهي التي أولاها حنا اهتمامه ، فعلى حد تعبير شوقي بغدادي أنها كانت

صورة عن أشخاص أحياء فأبطال الرواية هم :

- فارس¹: شاب ، صاحب السادسة عشر من عمره ، مولع بالحوادث الفظيعة ويحلم بالمغامرة ويستهوئ الحرب ، حياته تتراوح بين أحلامه من جهة ، والظروف المعيشية في ظل الحرب من جهة أخرى.
- أبو فارس : وهو ميخائيل والد فارس ، كثير التأمل في الظروف والأحداث السائدة ، وشديد التذكر لشبابه والأحداث الماضية.

¹ - . المصاييح الزرق- حنا مينة ص 18.

- الصفтели : أبو رزوق وهو عجوز ناهز الستين من عمره ، عملاقا ، شائبا ، عيناه حادثان ، تومضان خبثا وحسدا ، الأمر الذي جعل الناس يتقون سلاطة لسانه ما أمكن ، يرتدي غالبا سروالا أزرقا وقميصا كاكبي ، وينتعل بوطا عسكريا ضخما ، وهو صياد يشقى لكسب رزقه.
- جريس المختار : كان ذئبا وحملًا في وقت واحد ، يختبئ وراء مفهوم الحرب من أجل المراوغة ، وعدم تطبيق مطالب الشعب ، وذلك خدمة لمصالحه ، وحفاظا على منصبه .
- بشارة القند لفت: رجل بدين قصير كبير الرأس ، مترهل الوجه أحمره ، أشيب الشعر قليلا ، وهو مساعد للمختار ، وقد كان من قبل خادما في إحدى الكنائس ولكنه غير متناسب مع مهنته هذه فلا هو بتقي ولا هو بصالح ، وهو محب للسكر وكثير الثرثرة عندما يسكر ، فيظل يروي فضائح الناس دون تحفظ ، وقد كان محل ترصد ومراقبة للصفтели.
- محمد الحلبي : طيب وعفيف ، وهو صاحب دكان لبيع اللحم ، متفاعل مع أهالي الحي وإذا رأى نزاعا شب يعمل على فضه ، وفي أيام الشتاء يشعل موقد الدكان ويترك الناس حوله.

ب – الشخصيات الثانوية :

- عازار الاسكافي¹ : له دكان ضيقة مستطيلة يرفع فيها الأحذية ، له رجل مقطوعة ، وكان كثير الجدل مع الصفтели .
- الجبلاوي : صاحب مطعم بالحي .
- مكسور المبيض : صاحب دكان يعمل عنده ابنه سالم والفتى بيرم ووعده لهما بوعود كاذبة يؤجلها لهما من فترة لأخرى.
- سالم ابن مكسور : طفل له رأس صغير ذو شعر أصهب يعده والده دائما بكعكة أصبحت حلما له.
- بيرم : فتى يضحك ضحكة غبية يحلم بأن يتزوج ، ويعده معلمه بتزويجه ويؤجل له ذلك من فترة لأخرى.
- شاروخ : صاحب مقهى وهو في حقيقته صاحب مقمرة وخمارة ، وكان إذا أصبح رائقا نظف المقهى وإن كان غير ذلك تركها قدرة.
- حسن حلاوة : الفران الذي تشاجر مع مبتاعي الخبز وكذلك فارس حيث انتهى بهما وآخرين إلى زجهم في السجن.
- معلم فارس : كان يعمل في متجر يديره عسكري متقاعد ، وقد طلب في الحرب فغادر عائلته متوجها إلى الحرب.
- معلمته : وهي زوجة معلم فارس ، وبعد أن توفي زوجها في الحرب ظهرت لفارس خبايا شخصيتها ، فقد استغلت فارس مقابل حصوله على عمل في تحقيق مآربها المشينة.

¹ - المصاييح الزرق- حنا مينة ص 51.

- الست باربرة : صاحبة حانة النادي الذهبي ، وهي في العقد الخامس ، ذات أنف كبير وجبهة عريضة يعلوها شعر أشيب كثيف تضع عليه قبعة من قش.
- أم فارس : كانت دائمة التأثر بحال ولدها ، وهي تشتغل بالمعمل عند رشيد أفندي ، وكانت متقلبة الحال من أمل بعودة ولدها ، أو فقده نهائيا من جهة أخرى.
- مريم السودا : من سكان الدار يسميها أبو فارس الحاجة ، تحاول أن تظهر بمظهر النساء ، وهي تكبر زوجها بعشرين عاما .
- نايف : المسمى " الفحل " وهو زوج مريم السودا كان قبل أن يتزوجها يصبغ الأحذية ، ويعمل في المقاهي ، وعلاقته بزوجها يعكرها الخلاف والشجار الدائم بينهما .
- صقر : شابا وسيفا ، معافى ، خجولا كالنساء ، وعاطلا عن العمل كأنه في إجازة منذ ولد وإن وجد عملا تحول بينه وبين العمل أمه ، فهي لا تحب فراقه.
- أم صقر : عجوز قروية من سكان الدار هي وابنها ، اشتغلت من قبل شغالة ومنظفة بيوت.
- رنده : بنت الجيران ، التي تعرف إليها فارس ، وكانت تشتغل مع أم فارس في المعمل عند رشيد أفندي.
- نجوم : صبي قروي فلاح ، التقى بفارس عند النهر وهو الذي أقنعه فيما بعد بالذهاب إلى الحرب والتطوع في صفوف العدو.
- عبد القادر : من السجناء مع فارس ، وله رأي بأن الشهامة والقذارة لا تتفقان ، وكان كتوما عندما يسأل عن نفسه.
- الجابي : رجل قصير بدين ، يلبس " قلبقا " ولهجته تشير إلى انه من مخلفات العثمانيين وهو من رواد مقهى الشاروخ.
- عبد المقصود : أحد أثرياء الحي متزوج وله طفلان ، ظهر في حادثة الغارات ملتخفا بلحاف ابيض مبتل ليحتمي به وعائلته من الغاز الخانق.
- أبو جميلة : رجل نحيل ، ضامر الخصر تعطي ملامح وجهه شكلا يابانيا ، ورقبته طويلة رفيعة ، وكان أهل الحي يقدرونه لأنه حارب الفرنسيين حتى أعجزهم ، فوضعوا مكافأة لمن يقتله.

زمن الرواية : في فترة الحرب العالمية الثانية، أيلول (سبتمبر) 1939 م¹

المكان : إجمالا بين مدينتي : اللاذقية وحلب.

وضمن مجموعة من الأماكن : الدار الكبيرة ، شوارع الحارة ، بيت المعلم ، مقهى الشاروخ ، ضفاف النهر ، دكان المختار ، دكان الكاز ، فرن حسن حلاوة.

المعمل (مستودع رشيد أفندي) ، سجن اللاذقية ، سجن حلب شارع سان اليكس.

¹ - - المصاييح الزرق- حنا مينة ص 18-19

— الرؤية الاجتماعية وتفسير قضايا المجتمع :

الإنسان يتفاعل مع بيئته¹ :

الإنسان يعيش رغم أنه في بيئة من الناس والأشياء ، يسعى فيها ويعاني ليعيش ويشبع حاجاته المادية والمعنوية ويصل إلى أهدافه.

وهو في سعيه هذا يتعرض لصعوبات وعقبات وموانع مادية اجتماعية عديدة ، ويجد نفسه باستمرار مضطرا إلى التوفيق بين مطالبه وإمكانات البيئة أو إلى تعديل سلوكه حتى يتكيف مع ما يتعرض له من ظروف وأحداث ومواقف جديدة صعبة وغير منتظرة. فهو يستخدم ذكائه ويبتكر طرقا جديدة أو يتعلم طرقا أخرى للسلوك يستعين بها على حل ما يلقاه من مشكلات ، كما يجد نفسه مضطرا إلى التقيد أو الامتثال كما تفرضه عليه البيئة خاصة بيئته الاجتماعية من قيود والتزامات.

ويعترضه في سعيه هذا أنواع من : الشد والجذب والركز والوثب والرضا والسخط والغضب والخوف والحب والكره والنجاح والإخفاق ، فعلاقة الإنسان ببيئته علاقة صراع موصول . فهو يقدم أشكالا مختلفة من السلوك ، يلعب أدوارا مختلفة باختلاف المواقف.

نلاحظ تأثر الإنسان ببيئته من خلال رواية " المصاييح الزرق " والظروف الاجتماعية السائدة الخاضعة لظروف الحرب ، وتردي الأوضاع وحالة البؤس والحاجة والشقاء البادية على الشخصيات الروائية.

وظهور التقسيم الطبقي في الحي ، في بيوت السكن ، فالطوابق العليا للأغنياء ، والطوابق السفلى والأقبية للفقراء، وكان عدد الأغنياء يتناقص عاما بعد عام ، وعدد الفقراء يتضخم سنة بعد أخرى. >خوفيا عدا ذلك كان السكان خليطا من الناس ، بينهم البائع ، المتجول وناقل الحجارة ، وبائع الكاز والكازوز والخبز والكعك وماسح الأحذية ، والعامل ، ومن لا عمل له ، والاسكافي ، والخياط ، والخباز والحلاق ، واللحام ، والموظف الصغير<²

— حاول حنا مينة في روايته " المصاييح الزرق " أن يقدم صورة للحياة الاجتماعية بجوانبها المتعددة في مدينة اللاذقية السورية خلال فترة الحرب العالمية الثانية ، كما حاول أن يصور أثر هذه الحرب على الناس ، فقد استهلت التاريخ المعاصر في معالجة موضوعاتها وقد قامت بمعالجة القضايا القومية والاجتماعية وما يتصل بها من قضايا الفكر والسياسة... ، كما تجلّى الوعي القومي في روايته " المصاييح الزرق " في المظاهرات والثورات والتنظيمات الوطنية التي تطالب بجلاء الاستعمار وتحقيق الاستقلال.

— وحاولت هذه الرواية أن تصور الحياة الاجتماعية الشعبية فحنا مينة قد اختار في روايته أحد أحياء اللاذقية الشعبية ليصور معاناة الطبقة الكادحة التي تلعب في حياتها أزمة الحرب دورا كبيرا ولكن

¹ - في سيكولوجية الفرد والمجتمع - " عبد الرحمان الوافي ص 35 - 36

² -- المصاييح الزرق- حنا مينة ص 30.

الدور الأكبر هو لمجموعة هؤلاء الناس الذين يضطربون في ثنايا الكتاب ، كيف يحيون وكيف يعامل بعضهم بعضا وكيف يكافحون في سبيل العيش ، وكيف ترتبط مصالحهم بقضايا أمتهم ، وكيف يفهمون النضال ، وإذا كانت الرواية قد اختارت المدينة مجالا لها ، فإنها إشارات إلى عقلية الإقطاع وتصرفاته ممثلا في الإقطاعي " عبد المقصود " الذي يعد رمزا معزولا عن كفاح الشعب في هذا الحي ، وفي سائر أحياء المدينة ، بل في سوريا كلها إذ كان يمتص هذا الإقطاعي دماء الناس الذين وصفوه بأنه الشجرة التي زرعها البسطاء ، وعلى الرغم من ثرائه وسلطته فإنه كان هدفا لسخرية أهل الحي وتندرهم وخاصة حين غطى وأفراد أسرته أنفسهم بشرشف مبلل متوهمين أن هناك سحابة من الغازات السامة ، مما جعلهم عرضة لنيران حملة المحامل¹.

وثمة صور للاحتكار والاستغلال ، تمثلت فيما صنعه " حسن حلاوة " الخباز من منع الخبز عن سكان الحي ، وفي صنيع " رشيد أفندي " تجاه أم فارس ، التي حسم من أجراها " نصف يوم شغل " لأنها حاولت أن توصل الطعام إلى ابنها السجين : << حسم نصف يوم شغل على وردة رزق الله >> لقد صور حنا مينة في هذه الرواية حياة قطاع كبير من البسطاء : الاسكافي والصيد وماسح الأحذية والخباز والقصاب وحارسة الكنيسة وغيرهم ومن يتصلون به مثل : المختار وصاحب العمل والإقطاعي وقوات الاحتلال ، وأصحاب الملاهي والنساء المترفات ... كيف فعلت بهم الحرب ، وكيف كانت ردود فعلهم من خلال علاقاتهم الاجتماعية المتشابكة.

6- الرؤية الزمنية وفلسفة القناع :

- ولعل أهم ما يميز هذه الرواية أنها لم تقم في بنائها على شخصية مركزية تستأثر بتطور الأحداث ، وتتعدّد حولها الحبكة فإذا كانت هذه الرواية اتخذت بطلا مثل " فارس " فإن هذه الشخصية لم تعد أن تكون << نماذج >> فنية تتصل بشخصيات وقضايا ومواقف ، بالإضافة أنها لم تستأثر بتطور الأحداث والعقدة.
- وعلى هذا النحو فإن هذه الرواية عنيت برسم التطور القومي والاجتماعي للمجتمع العربي في بلاد الشام، وما يعانيه هذا المجتمع في سبيل تطوره من آلام وصعوبات.
- وربما تتسع رقعة الرواية الاجتماعية من خلال التفاعل الواضح بين الشخصيات والأحداث حتى تأخذ شكلا بانوراميا متسعا تتعدد فيه الشخصيات وتتوحد فيه الأحداث ، وتبدو لوحات وصور مختلفة تعكس الأوضاع السياسية والاقتصادية فرواية " المصباح الزرق " تصور أثر الحرب على مجتمع احد الأحياء الشعبية في مدينة اللاذقية كما تصور الحياة الاجتماعية وما يتشابك فيها من علاقات متعددة ، مثلما تبرز الطموح السياسي والقومي للشعب العربي في سوريا.

¹ - تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام- إبراهيم السعافين ص 381-382-384

فعمدت الرواية إلى مسح بانورامي للمجتمع بشخصياته الشعبية التي يألفها القارئ ، ويطمئن إليها بسرعة ، كما رسمت لوحات مختلفة تصور اثر الحرب على حياة هذه الشخصيات متمثلة في الفقر الشديد ، والهوة بين الأغنياء والفقراء ، والبطالة ، وفقدان المواد الغذائية ، واهتمامات الكادحين وقيمهم ولهوهم وأحاديثهم .. وقد تفاعلت هذه الشخصيات وما تصوره من لوحات مع الأحداث لتقديم صورة شاملة لمجتمع اللاذقية " الشعبي " وما يعانيه من صراع من اجل لقمة العيش ، وما يتخلل هذا الصراع من كفاح ضد الاستعمار ، فاتخذ التفاعل بين الأحداث والشخصيات شكلا نضاليا ، اجتماعيا وقوميا.

- فإذا كانت أحداث الرواية قد تطورت من خلال¹ شخصية فارس الشاب الذي يعاني القلق والبطالة ، فإن شخصية فارس لم تكن تمثل << البطولة القومية >> بقدر ما تمثل حياة الشخصية << الواقعية >> التي تشير إلى تطور الأحداث ، بل ترتبط بها ، فقد عانى فارس << البطالة >> واضطر إلى أن يدخل في صراع مع << حسن حلاوة >> الفران ، ليجد طريقه إلى السجن ، ثم ليعود بعد أن يقضي سنة ونصف السنة إلى معلمته زوجة الضابط الفرنسي الذي قتل في الحرب فتساعده في العثور على عمل مقابل إرضاء جسدها ، غير أنه عندما ملّ علاقته بها تخلت عنه ليعود إلى البطالة من جديد ولعل الدافع الرئيسي الذي جعله يمل علاقته بهذه السيدة هو إصرار حبيبته << رندة >> على التخلي عنها ، فلم يجد بديلا من التطوع مع الحلفاء للقتال في ليبيا ، ليجد فرصته في التغلب على مشكلته الفردية في العمل والزواج من << رندة >> فالأحداث التي تتعلق بالبطال لا تستقطب الأحداث الجزئية كلها ، وربما كانت هذه الأحداث تشكل بعض اللوحات الكثيرة التي أراد المؤلف أن يقدمها في روايته ، وربما كانت أهميتها في نظر أنها تقدم خاتمة معقولة للرواية من خلال العلاقة الغرامية التي انعقدت عليها الحكمة ظاهريا.

- والمتأمل في الرواية يلحظ أن << فارس >> لا يمثل البطولة الواقعية على العكس من والده الذي كان ثابتا على مبادئه ، رافضا لفكرة تطوع ابنه مع الحلفاء ، فاتخذت الأحداث تبعا لذلك مسارا رومانيا حيث قتل فارس في الحرب ، وماتت رندة بالسل في إحدى مصحات لبنان ، ولعل المؤلف أراد أن يقول من خلال نهاية كل من فارس ورندة ، أنه لا مجال للعزلة فنتيجتها فاجعة مدمرة ، أن الأحداث الرئيسية تنطلق من بيت أبي فارس ، وبالذات من خلال << شخصية فارس >> غير أن " فارس " لا ينفرد بالبطولة الرئيسية وإنما يشركه فيها الحي كله. وإذا كان المؤلف قد تنقل عبر لوحاته المختلفة التي رسمها للحي من خلال فارس تقريبا ، فإن مواقف شخصيات وأفعالها وتصرفاتها تعكس أهمية واضحة في الرواية كما أن العلاقة الغرامية بين كل من " فارس " و " رندة " الفتاة الفقيرة التي تعمل مع أمه في " جرد التبغ " لا يمكنها أن تقوم بحبكة الرواية فهي أشبه ما تكون بالحبكة الغرامية ، نظرا لضالة الدور الذي قامت به " رندة " في تطور الأحداث وتوجيهها ، بل إن هذه الحكمة هي وجه من وجوه العلاقات الإنسانية التي تدخل ضمن الاهتمامات الرئيسة للإنسان ، وهو الموقف القومي والاجتماعي من أزمة الحرب وانعكاسها الحاد في تفجير هذين الموقفين بقوة ولعلنا نلاحظ من سلسلة الأحداث التي شارك فيها

¹ - تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام - إبراهيم السعافين ص : 391.392

فارس صورة للحالة العامة ، وللموقف العام ، من خلال التناقضات الشديدة ، فعلى الرغم من أن والد فارس " معماري " إلا أنه لا يمتلك بيتا ، بل يقيم مع ابنه وزوجته التي تعمل في " جرد التبغ " في غرفة حقيرة ، وسط مجموعة من العلاقات الاجتماعية مع فقراء الحي ، الاسكافي وحارس الكنيسة والصيد والمبيض وصاحب الحانة والجزار والخباز ومختار الحي¹

- وإذا كان بناء الرواية قام على النظام ضد الظلم الاجتماعي والاستعمار ، من خلال أزمة حرب ، و علاقة غرامية فإن الانحراف الفردي من حلال ما تبعه من خيبة أمل لم يقض على الإرادة الجماعية في المقاومة ، فربما كان سفر فارس مؤذنا ببداية سيئة لبعض أفراد الحي ، سافر بينما رندة تعاني المرض ، وعقب سفره مات أبو رزوق الصفثلي ومرضت زوجته .. وعندما مات فارس لم يستسلم الحي للهزيمة ، فبينما كان " أبو فارس " يبكي لأول مرة منذ خمسين عاما ، صمّ أذنيه ضجيج مظاهرة يقودها الصيداوي والحلب وعلي مكسور وعبد القادر وصقر والجبلاوي وغيرهم ، فإذا كانت نهاية كل من " فارس " و " رندة " فاجعة ، فإن حنا مينة قد تلافى هذا السقوط بتلك المظاهرة الجماعية التي تعلن النضال والتحدى وهكذا ضحت رواية << المصاييح الزرق >> بالإنسان الفرد مقابل انتصار الجماعة وتماسكها ، فتضحية فارس سلبية وهروبه ومجانية موته ، أن تسلسل الأحداث التي عاشها فارس منذ نشأته حتى موته شديد الصلة بالصورة العامة للحالة التي تعيشها اللاذقية في أزمة الحرب ، فحياته على هذا النحو تعكس أزمة الحرب على شاب سحقته آلتها الجبارة ، فكان قراره الفردي إيذانا بحتمية سقوطه في مقابل المجموع الذي ظل صامدا ، فقد رفض " أبو فارس " موقف ابنه على الرغم من عاطفته تجاهه ، وظل محمد الحلبي شامخا لا يلين وعبر عبد القادر عن صموده بصفع السجان ومن هنا فإنه على الرغم من موقف فارس العاطفي تجاه فرنسا وتحديه الفردي << للمحتكر >> حسن حلاوة ، لم يصمد فارس أمام الظروف ، لغياب الرؤيا الصحيحة ، ولعدم تضامنه الصميمي مع الجماعة وهكذا سقط ... وهكذا فقدت الرواية حبكتها التقليدية البسيطة لأن بطولتها - باختصار - جماعية واضحة ، فبطل << المصاييح الزرق >> انتهى نهاية << فردية فاجعة² >>.

- وربما يتضح التضخم الزائد عن الحاجة في رواية << المصاييح الزرق >> فقد فرض الصدق في تصوير الحياة الشعبية على المؤلف أن يرسم صورة دقيقة لخبرته في أحد أحياء اللاذقية الشعبية وإن كانت هذه اللوحات التي يرسمها ، وتلك الأحداث التي يرويها لا تفيد الرواية في شيء ذي قيمة ، بل هي تنقل كاهلها وتجعل حركتها بطيئة ، كما نرى على سبيل المثال في قصة بشارة القندلفت والمرأة التي تتشح السواد ، وما أسفر عنه استطلاع أبو رزوق الصفثلي من عدم وجود علاقة ما بين هذه المرأة والقندلفت ، أ كما نرى في الأحاديث المتبادلة بين مريم السودا وزوجها عازار الاسكافي ، وفي ذكريات أبو رزوق عن إقامته في بيونس ايرس ، أو حديث جريس المختار عن فحولته الجنسية أو تحليلات المحاربين

¹ - تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام- - إبراهيم السعافين ص : 392.

² تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام- - إبراهيم السعافين ص : 393.

القدماء وأحاديثهم العسكرية عن خط ماجينو والحرب بين الحلفاء والمحور . وربما كان إقحام المؤلف لشخصية مكسور المبيض يعود إلى الرغبة في تقديم معلومات عن الاسكندرون وبيان موقف الأتراك من العرب في أنطاكية وموقف الفرنسيين المشابه في اللاذقية¹.

- وربما كانت التقريرية من عيوب المحاولات الأولى التي أثرت على تطور الأحداث تأثيرا طفيفا في مختلف الروايات ويمكننا أن نلاحظ الصورة التقريرية في رواية << المصاييح الزرق >> ، وقد يقع المؤلف نتيجة لحماسته للقضية التي يتحدث عنها ، في افتعال الأحداث وفي المبالغة والتهويل ، فتبدو الأحداث غير مسوغة ، وغير منسجمة مع تطور الشخصية ومع طبيعتها حيث تتجلى ألوان من التناقض ومن سذاجة التفسير.

- ويلاحظ على هذه الرواية ظهور عنصر التنبؤ ، بعيدا عن خط التطور الطبيعي للأحداث، من خلال إشارات يدسها المؤلف على لسانه أو على لسان إحدى شخصياته ، وعلى نحو ما نرى في قول المؤلف على لسان " فارس " في << المصاييح الزرق >> مشيرا إلى مصيره : << ضاع الآن كل شيء الأهل والحبوبة والعشيقة ، شيء واحد بقي أن يساق إلى الحرب ويموت فيها >>.

- كما نجد ذلك واضحا من خلال إشارة أبو فارس عندما علم بقرار فارس << ما أشبه حكايتنا >> وبعد أن زفر بغير قصد فكر << أما أنا فقد عدت ، ولكن هو >>².

- ومهما يكن من أمر فإن هذه المآخذ لا تضعف بناء هذه الرواية أو بعضها فالأحداث ملتزمة مع الشخصيات ما لاحظنا ، فتتطبق هذه الملاحظات على هذه الرواية إلى حد كبير فهي متصلة بالواقع التاريخي اتصالا وثيقا ، تتحدث عن كل ما يدور في حياة الناس من سرور وألم ، وفقر وغنى وصحة ومرض وحب وجنس ، ووطنية وثورة وخيانة ونكوص وشهوات وعقائد كما تتحدث عما يتأجج في نفوس الناس من صراع وما يلون مشاعره من عواطف واتجاهات ...

7- الرؤية الاجتماعية السردية وطابعها :

- تفاوتت هذه الرواية فما بينها في اصطناع أساليب السرد والحوار نتيجة لطبيعة الظروف التاريخية والفنية للكاتب.

- كما قامت رواية << المصاييح الزرق >> في اصطناع الأسلوب الملحمي وإذا بدت بعض لمحات من الاسترجاع فإنها لم تغير من طابعه العام ، على نحو ما نرى مثلا في استرجاع <<أبو فارس >> لذهابه إلى الحرب في <<السفر برا >> وما جرى له بعد عودته مقارنا بين حالته تلك وحالة ابنه " فارس " الذي ذهب إلى ليبيا متطوعا في الحرب وفي ظنه أنه قد لا يعود. أو في استرجاعه لقصة نجوم حول مصرع ولده في المستشفى العسكري³.

¹ - تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام- - إبراهيم السعافين . ص : 402 - 403

² - تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام- - إبراهيم السعافين . ص : 406

³ - تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام- - إبراهيم السعافين . ص : 425

- كما تمكن الحوار من القيام بوظيفته في الأغلب الأعم فاستطاع أن يكشف عن طبيعة الشخصية ومستواها ، وأن يسهم في تطور الأحداث وفي صنع الحبكة الفنية وأن يؤدي دوره الحيوي في بناء الرواية وقد تعدد أشكال الحوار في هذه الرواية ابتداء من الشكل القديم وانتهاء بالحوار الذاتي الذي عدّه كثير من النقاد شكلا من أشكال السرد المعاصر .
- وهكذا يتساقط السرد مع الحوار في تقديم صورة متكاملة عن موقف الشخصية من الحياة الاجتماعية برموزها المعقدة ، في صلة عضوية مع بناء الرواية بأحداثه وحبكتة وبموقف الرواية العام ، وقد تمكنت << المصاييح الزرق >> في الإفادة من الحوار في رسم صورة عامة للشخصيات داخل إطار البناء العام في ذلك الحي الشعبي الأصيل حيث نجد الحوار مناسباً لمستوى الشخصية وبخاصة تلك الشخصيات الشعبية التي تغص بها الرواية من أمثال القندلفت وأبو رزوق الصفتلي و عازار الاسكافي ومريم السودا وغيرهم ، إلا أن المؤلف على الرغم من ذلك ينسى بعض الشخصيات لتعبّر بأقوالها عن مستوى لا يتناسب تماماً مع طبيعتها ، كما نجد في حديث الصياد أبو رزوق إلى فارس عن الإقطاعي وزوجته : << أتعرف المومياء ؟ هو كذلك عصبي إلى درجة الجنون كافّر لا يعرف الإيمان فإذا جاء الشتاء وسكن المدينة ، ارتاح فلاحوه من شرّه ، أما إذا جاء الصيف فقد حلّت عليهم مصيبة كاللعنة وقد ترك الكثيرون أراضيهم وهاجروا لكنهم كانوا يعودون ، وعندئذ يتحكم فيهم بأشد مما كان يتحكم¹>> .
- ولم يكن يدل الحوار على طبيعة الشخصيات فحسب ، بل على طبيعة الحي بعامته ، كما نجد في حوار الصفتلي وعازار حول امرأة تمر بالحي ، فيعريها الصفتلي بنظراته الجارحة ، فيما يقول عازار دون أن يرفع عينيه عن الحذاء :
- يلعن شوارب زوجها .
- ويضحك الصفتلي ويسر في نفسه.
- إن شواربك أحق باللعنة.
- لكنه يكتّم ذلك ويقول :
- وشوارب أبيها ؟ .. لا تنسى شوارب الذي خلف ..
- ويضيف الصفتلي :
- وشيبة التي خلّفت أيضا .. <<².
- ونجد اللهجة المحلية التي تدل على طبيعة شخصية فلاح ، عندما جأر ثائرا على معاملة رشيد أفندي في تخمين تبغّه :
- خربت بيتنا بأسعارك وتخميناتك ، أين ضميرك ؟ أين الرطوبة ؟ أين العيدان ؟.
- غيره...

¹ - المصاييح الزرق-- حنا مينة ص : 56

² - المصاييح الزرق-- حنا مينة ص : 56

- يا رشيد أفندي.
- غيره.....
- هذه حرام .. التبغ.
- ونتر الأفندي سترته وقال :
- التبغ ؟ أيّ تبغ هذا ؟ هذا تبغ ؟ وحل ، هذا وحل ، ارفع ، غيره ، من لا يعجبه التخمين أمامه المحكمة.. هل سجلت الوزن الإجمالي والرطوبة والعيدان ؟
- نعم ..
- ارفع..¹.
- أما أسلوب السرد في هذه الرواية فقد تراوح بين نقد الطابع المحلي للبيئة بمختلف صوره وأشكاله وبين الأسلوب الفني الجميل الذي يعنى باللغة الشعرية التي تتفق مع المواقف الدرامية في كثير من الأحيان.
- وتتكرر المراوحة في الرواية بين استخدام اللغة المحلية واللغة الشعرية على نحو تتميز فيه الرواية بطابعها الخاص ويتمثل ذلك بوضوح في وصف المقهى فقد كان في حقيقته مقمرة وخمارة ، وكان المقامرون فيه هم الشاربون ذاتهم ، فإذا ربح أحدهم ابتاع كأساً رخيصة من عرق التين ذي الرائحة الكحولية الحادة ، فجرعه دفعة واحدة وعاد إلى اللعب ن وفي أنصاف الليالي حين لا يبقى لعب ولا عمل يتجمع بعض المدمنين حول الشاروخ فيشربون ويحكون ويغنون ويأكلون ما جلبوه من خبز وبيض وبصب وفجل ويتركون في فضاء المقهى غيوماً من دخانهم ، وأصداء من أحاديثهم الممعة في الأقداح وقشور البيض والفجل والبصل..². أو في ذكر الأغاني الشعبية وتعلو نغمة الشعر في أسلوبه وتحلق بجناحين كبيرين في أحيان كثيرة كما في وصفه لجو الصيد والصيادين : >> كان الأصيل قد أوغل ، وبدأت تسابيح العبرات تتعالى في ابتهاج علو ساحر ، وعلى الأدغال الكثيرة حول ضفتي النهر .. راحت عصافير التين تحط وتطير ، وتزقزق مرحة كأنها تنشد لحناً تودّع به النهار ، وماء النهر الرصاصي تسرع باتجاه البحر ، والفضاء بما فيه من أحجار وأدغال وأشجار ينشد أغنية صامتة تبعث في النفس قدسية عميقة ، ومن الأرض المنذاة ببرودة المساء المتنفسة لهيباً حاراً تمتصه رطوبة المغيب ومن التراب الخصب المبارك ، تنتشر رائحة تفعم الجو وتعطره <<³.

8- الأبعاد النفسية للشخصيات الروائية :

يبين مفهوم الشخصية وينطلق أساساً عند صنف معين من أفراد المجتمع من مبدأ المادة وأن هذا المبدأ يتصل عندهم بالتنظيم الاجتماعي.

¹ - المصاييح الزرق-- حنا مينة : 124

² - المصاييح الزرق-- حنا مينة ص : 42-43

³ - المصاييح الزرق-- حنا مينة ص : 65

وتكون المادة عند هؤلاء هيكل الشخصية وإحدى محركاتها الأساسية ، فهي كل ما يدفع الفرد إلى استعمال طرق حتى وإن كانت مخالفة لقيم المجتمع مثل: النصب ، الحيل ، الخداع ، السرقة ، لكسب الإرضاء المادي والمعنوي والاجتماعي.

فالشخصية عند هذا تتحدد وتبنى على نظام من المبادئ تتحكم في سلوكهم وتحدد المادة درجة توافقهم وتكيفهم النفسي والاجتماعي¹.

ونجد نوعين من الأنا عند الدكتور علي الوردي وفي دراساته التي يرى فيها :

أ – الأنا محور الشخصية : يقصد بها شعور الإنسان بالأنا وسعيه المتواصل لرفع مكانتها في نظر الآخرين وكسب تقديرهم ولا يقف عند حد معين فكلما نال مكانة عالية طمح إلى مكانة أعلى منها .

ب – التوقع الأنوي : يرى إيجابياته فقط (الغرور) .

إذا فتكوين الشخصية يعتمد على عاملين :

✓ عامل وراثي .

✓ عامل المحيط الاجتماعي.

أما الحالات النفسية لشخصيات الروائية للمصاييح الزرق فنجدها :

بالنسبة للبطل فارس : ثبي عاش بين رغباته النفسية والذاتية وذلك من خلال أحلامه عن الحرب والمغامرات ثم من جانب تفكيره بفتاة أحلامه ، ثم انصدامه بالواقع والظروف المعيشية التي تحتّمه على الخضوع.

وأبطال الرواية الآخرين والأبطال الثانويين كذلك لهم دور فاعل في تحريك أحداث الرواية ، والمحتوى يعبر كثيرا عن نفسياتهم التي يخرجونها في الشجار والجدال والعراك أحيانا مثل الشخصيات : الصفثلي ، الحبي ، الجبلاوي ...

كما نجد كذلك مريم السودا التي تعبر كثيرا عن نفسياتها ، وتحاول دائما أن تثبت نفسها وأنها مثل كل النساء ، ومن جهة أخرى تحاول أن تثبت كذلك أن الناس جميعا يتشاجرون مثلما تتشاجر هي وزوجها نايف.

فانطلاقا من الظروف المعيشية والوضع المتذبذب يمكن اعتبار أن شخصيات الرواية معقدة وغامضة نظرا لخبايا متعلقة بها غير ظاهرة ولأن الكاتب لا يميل إلى التحليل النفسي.

9- الرؤية الفلسفية والإيديولوجية :

لقد نقل الكاتب الروائي حنا مينة نظريته الفلسفية للواقع المجتمعي للأوساط السورية ، وبالأخص اللادقية ، عبر رواية " المصاييح الزرق " التي تحمل في طياتها ومن خلال تسلسل أحداثها مجموعة من الصور التي نسخها وأخذ يعبر عن أفكاره وي طرح قضية ضمنية وهي وبالدرجة الأولى تعبر عن مأساته

¹ - : في سيكولوجية الفرد والمجتمع-- د عبد الرحمان الوافي ص : 20

وشقائه وصباه وحياة عائلته ، فالرواية قد تكون إلى حد ما عبارة عن سيرة ذاتية ، واستطاع أن يبلور الصراع الإيديولوجي الذي يمثل الصراع الطبقي فمن ناحية الفئات الفقيرة أو المحتاجة يمكن أن تدخل في صراعات من أجل الحصول على لقمة العيش ونجد ذلك في الشجار¹ ، الذي شبّ بين الفران حسن حلاوة وبين فارس وآخرين كانوا معه.

أنا الأغنياء قد يكون لهم هدف آخر بعيدا عن التفكير في المال أو شيء آخر وإنما لغرض منحط مثل استغلال² معلمة فارس له لأهدافها الخاصة. لذلك فقد وضّح حنا مينة التباين الطبقي وما قد ينجر عنه وعن الحاجة المادية أو الغذائية حتى .

ويلاحظ كثيرا أن الراوي يدمج أفكاره ضمن الأحداث دون أن يبرز بشكل جلي وهو ما نجده عندما يتحدث عن السمر الذي يقضونه أهل الدار في الساحة وخروجهم بالراديو إلى الحقول. ثم يتأسف على أن هذا الحال قد انقضى ولم يعد كما هو حيث يقول :

>> هذا ما كان في الماضي... أما الآن فقد انقضى ذلك كله ، وانتفتت هذه الملاذ على قللتها وتفاهتها ، فلم يعد هناك رقص ولا غناء ، بل لم يعد سرور ولا حبور ، ومنذ اليوم الأول للحرب بدأ تقنين كل شيء ، وغاضبت البسمات مخلفة جهمة كئيبة ، ونامت البلدة على هم وظلام³<<.

10- الرؤية الوجودية :

اعتمد حنا مينة في التعبير عن رؤيته للوجود على وصف الطبيعة إلى جانب الاعتماد في الرواية على سرد الأحداث وتفاعل الشخصيات معها ، فالوصف يجعل القارئ يحس وكأنه يشاهد ذلك المنظر الطبيعي ويتعايش مع أفراد الرواية فيصبح فردا من هؤلاء ، نجده يقول : >> الشمس مشرقة في كبد السماء ، وهاجة كعادتها في مدن الساحل ، وريح الخريف تتلاعب بأوراق الأشجار ، وسنونات تقطع الفضاء متجهة إلى الغرب...<<.

ونراه من جهة أخرى يعبر عن غضب الطبيعة الذي ربطه بغضب الناس ، على أن الكون يهتز للظلم ويثور لثورة الناس ، يقول : >> ويبدو أن غضبة الطبيعة هذه قد ألهمت غضبة الناس ، لحقتها ، وتفاعلت معها ، فأنتجتا معا ضراما من اللهب ينتزى في الوجوه ، ويتسعر أكرات من نار تتدحرج على الأرصفة... كان هذا الانسجام الثوري بين الطبيعة والناس نذير انفجار مروّع⁵<<.

كما نجد في رواية " المصابيح الزرق " الصراع الدائم سواء كنزاع بين أشخاص كما هو بين الصفتلي وعازار الاسكافي ، أو في الأسر كنزاع مريم السودا وزوجها نايف الفحل ، ونلاحظ النزاع

¹ - - المصابيح الزرق-- حنا مينة ص : 115-116

² - - المصابيح الزرق-- حنا مينة ص : 253

³ - المصابيح الزرق-- حنا مينة ص : 38

⁴ - المصابيح الزرق-- حنا مينة ص 41

⁵ - المصابيح الزرق-- حنا مينة ص 142-143

الأعلى من ذلك وهو بين السكان والمختار ليحقق مطالبهم وتهربه هو من ذلك ، أما الصراع الأشد وهو صراع أبناء الوطن مع الأعداء والمحتلين ، مما يدفع بالمواطنين لحرصهم المستمر ومحاولاتهم المتلاحقة لإبعاد العدو وإخراجه من أرضهم فاصلة وسعيهم الأبدي للوصول إلى الحرية وتحقيقها على أرض الواقع. إذ يقول حنا مينة في سبيل طره هذه الفكرة :

- "قال فارس : أما الفرنسيون فلم يطلعوا !".

-وسأله والده : أتظنهم باقين ؟ وأضاف دون أن ينتظر الجواب :

لن يبقوا ، نحن نكرهم ، وإذا قلت لك اخرج من بيتي فمعنى هذا أنك ستخرج.

أنا أقوى لأنني أنا صاحب البيت ، لا أحد يستطيع البقاء في أرض برغم أهلها ما رأيك ؟

- صحيح ، ولكن إذا لم يخرجوا ؟.

- نحاربهم !¹.

11- الحس الأسطوري والخيال الإبداعي :

القارئ في رواية " المصاييح الزرق " يلاحظ اعتماد الروائي حنا مينة على استرجاع شخصيات قبلية ويجعلها تتراقق وأحداث الرواية ، مثل شخصية هتلر² التي دار حولها الجدل. وحاكم أورشليم بلاطس النبطي³.

وكذلك حكاية " القدسية الكسندرة " حيث عندما مرّ فارس ورنده بتمثال : >> كانا قد بلغا قاعدة تمثال " القدسية الكسندرة " في فسحة مستديرة تحيط بها حقول ، وتطل من إحدى جهاتها على البحر . وكان التمثال عمودا من رخام ، وقد بدا طروبا كأنه يهم أن يبتسم أو لعله يستعيد ، على طريقته المفضلة ، ذكريات قديمة ، أثّرت لديه⁴.

والكاتب حنا مينة ليس له إلا أن يدمج مظاهر الطبيعة في الأحداث التي تمر بها الرواية ، فيجعل الجو السائد وكل من السماء والبحر والأرض والأشجار والسحب والطيور تتناغم في لحن من خياله الفكري ، تتراقص عليه كلمات تضيء على كل حادث رونقا لم يكن ليزهو لولاها. ويدل كل ذلك قوله :

كانت الشمس على وشك المغيب ، وقد امتزجت جمرتها لقانية بصفرة شاحبة ، واستطالت ظلال الأشجار استطالات مطردة ، وبدت الأغصان جرداء ، كأصابع معروقة..... ، ويرمق المدينة بعين عظيمة الاتساع ، مبتسما وقائلا : >> أعرف كل شيء << ، ثم يفهقه بموجاته المصطفقة، على صخور الشاطئ ويضيف : >> لكنني لن أبوح بشيء⁵.

1 - المصاييح الزرق- حنا مينة ص : 206

2 - المصاييح الزرق- حنا مينة ص 49

3 - المصاييح الزرق- حنا مينة ص 125

4 - المصاييح الزرق- حنا مينة ص 267

5 - المصاييح الزرق- حنا مينة ص 263

قائمة المصادر والمراجع

- 1- إبراهيم السعافين " تطور الرواية العربية الحديثة " في بلاد الشام ، 1870-1967 دار المناهل للطباعة بيروت . ط 2 ، 1407 هـ / 1987 م
- 2- حنا مينة " المصباح الزرق " دار الآداب بيروت .
- 3- عبد الرحمان الوافي ، في سيكولوجية الفرد والمجتمع ، دار هومة بوزريعة الجزائر . المطبعة الجزائرية للمجلات .